

تقديم

تندفع الكلمة في خلايا الإنسان الحر اندفاع العصارة الحية في النبتة النامية ؛ ذلك لأن الفكر هو سِمة الإنسان المميزة .

أما جمود العقل فهو توقف في مجرى الحياة .. وهو انهيار لكيان الإنسانية والإنسان ، وامتهان للتاريخ والمدنية ، وهوى بالفرد والجماعة إلى الحضيض الأوهد .. وسير بهما إلى فناء .

قد يرى بعض الناس في هذا الكلام تهويلا أو مبالغة ، ولكنني أؤكد أنه تصوير دقيق لواقع جاسم يظهر لكل ذى عين مبصرة .

ذلك أنه ماتوقف الفكر ، أو تهددته أية عوارض طارئة إلا كان هذا دليلا أكيدا على حقائق يراد إخفاؤها .. وماخفيت الحقائق إلا عميت الأبصار عن الطريق ، وتوقف عن السير ركب التاريخ الزاحف .

وعن طريق حرية الفكر يتم تشخيص كافة الأمراض أو الآفات التي يصاب بها المجتمع ، وعن طريقها ومن أجلها يميل الناس إلى البحث الهادف ، ولا يستسلم قوم من الناس إلى الركود أو النوم .. أو السلبية المقيتة .

وليس في العالم كله من ينكر قيمة الفكر إلا أن ينكر قيمة نفسه ... إن حرية الفكر هي صميم المعجزة ..

وتحرر العقل من قيوده معجزة في صميمها .. ذلك أن الحواجز عديدة : أولها السلطة ، وثانيها التقاليد ، وثالثها المعتقدات الموروثة غير القائمة على الأدلة والبراهين الصادقة .. ورابعها وخامسها ...

وإذا أفلت الإنسان الحى من نطاق كل أولئك أصبح متفلسفا .. فإذا اهتدى إلى الطريق الرئيسى ، وبانت له معالمة فهو الفيلسوف الذى يخدم مجتمعه ويخدم الإنسانية .. فيكتب له الخلود إذ يساهم فى بناء الحضارة .

وإذا كان الفناء قد كتب على كل حى ، فقد وجب ألا نقول عن الفيلسوف : إنه مات .. فلازلنا إلى اليوم نقرأ عن سقراط ، والفارابى ، وديكارات ، والغزالى ، وإقبال ..

يموت الشيخ الفانى فيتكسر فى ظلام الأبد .. ويبقى الكائن العظيم الذى يمد الناس بالحياة ، وبالحرية ، وبالحركة .

والتاريخ روح من الكائن الأعظم ، أو هو بته الكبرى ، وضع لها النواميس الثابتة ، وجعل من أول هذه النواميس أن من يقرأ ، ومن يبحث ، ومن يفكر فهو إنسان .

أما الجمود - فهو معجزة الجماد وخاصته ..

وما توقف إنسان عن القراءة والبحث إلا كان كالرجل الأكم .. والجماد الذى لا يقدر على شىء ..

ومن عجب أننا نجد كثيراً من مؤرخى الفلسفة يعيرون دائماً على الفلسفة الإسلامية ، وعلى الفلاسفة المسلمين أنهم كانوا يعتمدون على الفلسفة اليونانية والفلاسفة اليونان ، ويشرحون آراءهم ..

وقد كانت الفلسفة اليونانية ذاتها فلسفها مقتبسة عن غيرها من الفلسفات .. وقد أخذ فلاسفة المسلمين عن أسلافهم من فلاسفة اليونان ، وكانوا شراحا لآرائهم ونظرياتهم .

وأخذ اليونان - على خلاف ما يذهب بعض المتعصبين - عن أسلاف لهم سبقوهم فى ميدان الحضارة والفكر .. أخذوا عن مصر وبابل وآشور وغيرها .

يقرر الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارات الأولى » : « إنه إلى زمن ليس بالبعيد كان الناس يعتقدون أن اليونان غير مدينين في فنونهم وعلومهم وآدابهم لغيرهم من الأمم التي سبقتهم ، ولكن هذا الرأي لم يعد التسليم به ممكناً ؛ فإنه وإن كانت الحضارة القديمة قد بلغت الأوج في بلاد الإغريق إلا أنها ولدت ونمت في الشرق ، ونحن نعلم اليوم أنه في العصر الذي لم يكن فيه اليونان إلا جهلة وبرايرة ، كانت هناك حضارات لامعة زاهرة على ضفاف النيل ، وفي سهول كلديا « فليس يعيب الفلسفة الإسلامية ولا الفلاسفة المسلمين أنهم اقتبسوا عن أسلافهم من فلاسفة اليونان ، وأنهم كانوا شُرَّاحاً لآرائهم ونظرياتهم .. » .

ولعل هؤلاء الحريصين على إبراز هذه الحقيقة أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن الجديد المبتكر في هذه الفلسفة الإسلامية ؛ لنستطيع أن نضعها في الميزان كتراث فكرى له أصالته .. ولنستطيع أن نتبين مدى ما استفادته الأجيال من هذا التراث .. إنه لايزال من واجبنا أن نجهد أنفسنا في البحث والتنقيب .. ولايزال من واجبنا أن نلم بعالم الأفكار على اختلافها .. ولايزال من واجبنا أن نبذل الجهد في تحرى الصواب من أى اتجاه يرد إلينا أو نصل إليه ..

وقد كان الباحثون العرب ينشدون المعرفة للمعرفة ، ويترجمون آثار من سبقهم .. ويزيدون عليها ماتصل إليه عبقرياتهم ومداركهم .. يقول الكندى : « وينبغي ألا نستحي من الحق ، واقتناء الحق من أين يأتي ؛ وإن أتى من الأجناس القاصية ، والأمم المتباينة » .

وهو نوع من الحياد الفكرى الإيجابى ، يفتح النوافذ على مختلف الآراء ، ومتباين الأفكار تهب على العقل فتكسيه صحة وغناء ..

وإدراك الحق هدف تتضامن الأجيال الإنسانية للوصول إليه على مر الأجيال ، كل جيل يضيف إلى من سبقه ، ويسلم التراث إلى من يليه ..

ولسنا نجهل الحفاوة التي قوبل بها فلاسفة المسلمين في الأجيال التالية إلى يومنا هذا ..

نقل عنهم الأوربيون آثارهم وأفكارهم .

كان فلاسفة المسلمين فلاسفة موسوعيين دونوا تراثنا ضخماً وسلموه إلى الخلف من بعدهم ، فاستفادت الأجيال من آثارهم حتى فتنوا بهم ..

وقد طبع « القانون » لابن سينا - كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية باللاتينية ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه عشرين مرة في القرن السادس عشر .

وظل هذا البحث الرائع يدرس في أوروبا كمرجع من أهم المراجع العلمية والفلسفية .

كما ظلت بحوث فلاسفة المسلمين نبع الحضارة ، وسبيل المعرفة الصحيحة في المدنية والفكر .

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً من آلاف الأمثلة ، فأمامنا منهاج ديكارت في المعرفة فقد أثبت ديكارت وجود الذات عن طريق الفكر .

ذلك أنه أحس إحساساً واضحاً بأنه يفكر .. وبالتالي أصدر حكمه بأنه موجود .

وقد كان الرئيس ابن سينا (المولود عام ٩٨٠ ميلادية) يرى أن الفكر حركة النفس الناطقة ، أو هو دليل وجودها ، وهو أول من لجأ في هذا إلى التجربة النفسية ، فهو أستاذ « ديكارت » على خلاف ما يذهب إليه مؤرخو الفلسفة من أن ديكارت القرن السابع عشر الميلادي هو أول من اكتشف هذا المعنى .

قال الرئيس :

« لتصور إنساناً محبوب البصر لا يرى من إهابه شيئاً ، متباعد الأطراف لايلمس جزء من جسمه جزءاً آخر، يهوى في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس ولا يسمع - أليس يغفل مثل هذا الإنسان عن جملة بدنه ؟!

أليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت إنيته ؟!

فالنفس إذن موجودة وجوداً غير بدنى .

هذا البرهان الذى شرحه الرئيس هو نفسه الذى اتجه إليه ديكارت واتخذهُ دليلاً على وجود الذات ، مما جعل بعض الباحثين الغربيين أمثال فالو Valois وفلا لاني Furlani يميلون إلى القبول بإمكان اطلاع ديكارت على آراء الفيلسوف الإسلامى .

وإذا كان الفيلسوف الفرنسى قد انتقل فى بحوثه الفلسفية من معرفة « الذات » إلى معرفة « الله » ثم إلى معرفة « العالم » فإن نقطة البدء كانت من منهج الرئيس ، الفيلسوف الإسلامى .

فالإنية عند ابن سينا وليدة الشعور الواضح بوجودها - حتى ولو لم يوجد الجسد على حد ما يذهب إليه الافتراض .

وينتقل « ديكارت » فى كتابه « التأملات » ليضيف لبنة جديدة لهذا التراث فيقول :

« وأقول بالإجمال : إنه إذا صح لى أن أقول : إن كل ما أتصوره تصوراً واضحاً متميزاً هو حق ، فليس هنالك ما هو أكثر يقيناً من وجود الله .

صحيح أنه كان لابد لى من كثير من الانتباه ذهنى للوصول إلى معرفة هذه الحقيقة ، ولكن مع أن هناك حقائق معروفة بجلاء لكل شخص ، وأخرى لانهتدى إليها إلا بعد طول نظر ، إلا أن هذه متى اهتدينا إليها لم تكن أقل يقيناً من تلك .

ولاجرم أنه لو كان ذهنى خالياً من أى حكم سابق ، ولو كان فكرى غير مشغول بوجود الأشياء الحسية انشغالا مستمراً ، لما كان هنالك شئ آخر أعرفه بأسر وأسرع مما أعرف الله « ا. هـ .

وقد انتقل « ديكارت » بعد إثبات وجود الله ، إلى إثبات وجود العالم كما هو معروف .

شئ جلى واضح هو الذى يُكوّن الذات :

شعورك بإنيتك ..

شعورك بوجودك ..

ولو بلغ شيء من اليقين هذه الدرجة فهو حقيقة ..

فإنه حقيقة .. كما أن القضايا الرياضية حقيقة .. كما أن وجود الذات حقيقة .

92-93

وكل للفلاسفة أخذوا عن أسلافهم ..

وكان للفلاسفة المسلمين فضل أى فضل على من جاء بعدهم كما بينا ..
وسنضرب مثلاً آخر بفيلسوف واحد من فلاسفة المسلمين هو « الغزالي » .

فالإمام الغزالي سبق الفيلسوف الفرنسى « بليز بسكال » PascalPensées [١٦٢٣ - ١٦٦٢ م] الذى نثر فى خطراته ما أسماه - فى مجال إثبات وجود الله وصدق النبوات - دليل المراهنة والاحتياط ، وقد سبقه الغزالي كما ذكرنا إلى هذا الدليل ..

بل سبقه شاعر عربى فيلسوف هو أبو العلاء المعرى فى قوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا بحث بعد الموت قلت : إليكما !
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالحسار عليكما !!

بل وسبقهم القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون :

﴿ وَإِنْ يَكَذِّبُنَا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكَذِّبُنَا فَاَصْدَاقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾^(١)

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

(١) سورة غافر آية ٢٨

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ﴿١﴾

والإمام الغزالي سبق الفيلسوف الإنجليزي « دافيد هيوم » [١٧١١ - ١٧٧٦ م] إلى فكرته التي اشتهر بها في إنكاره للمعلولية والسببية ، بل وسبقهما إلى ذلك القرآن الكريم حينما عرض لقضية إبراهيم ودخوله النار دون أن تسبب له الإحراق ..

قال تعالى :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وكذلك الأمر بالنسبة للفيلسوف الألماني « عمانويل كانت » [١٧٢٥ - ١٨٠٤] حينما قرر أن العقل ليس مسباراً كاملاً ، وليس وسيلة مثالية للوصول إلى إدراك الحقائق ، فالعقل عند « كانت » لا يدرك الشيء بذاته Momena وإنما يدركه كما يبدو له عن طريق الحواس ، فهو يدرك الظواهر Phenomena ويخفى عنه غير ذلك .. كما يخفى عليه ما ليس له ظواهر يدركها الحس ..

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠

يقول الغزالي :

« كل مالا يدركه العقل ليس محالاً في ذاته » .

إن عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب المحدثين إنما ترجع شهرتهم إلى نظريات أخذوها جميعاً - أو على الأقل سبقهم إليها جميعاً - فليسوف إسلامي واحد هو الإمام الغزالي ، ومع ذلك نرى أن بعض المستشرقين - لأهداف عديدة - كانوا ولا يزالون حريصين على التقليل من شأن التراث الإسلامي في ميدان الفلسفة والفكر ، ومن أسف أن عدداً من أنصاف الباحثين في بلادنا لا يزالون يؤمنون بما يؤمن به أساتذتهم ، ولو أجهدوا أنفسهم قليلاً لانكشفت لهم الحقائق .. بوصفهم باحثين لا بوصفهم إسلاميين .. بل بوصفهم باحثين وبوصفهم إسلاميين لا يسلمون إلا للحق الذي يقوم عليه البرهان والدليل .

وبهذه المناسبة نسجل هؤلاء ملاحظاً له أهميته في هذا الميدان .. ذلك أن الإسلامية دعت إلى الفكر وجعلته عمادها وأساس دعوتها .. ولذلك ظهر في ظل الإسلام مفكرون وفلاسفة اعتبروا أئمة في الإسلامية الكبرى .. ودفع الإسلام معتنقيه إلى الشك قبل الإيمان .. وحكى القرآن حكاية إبراهيم الذي تطلع إلى القمر وإلى الشمس وإلى غيرها من الظواهر .. ثم دخل بعد الشك إلى الإيمان .

قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧ ﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً

قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ إِلَهُي بِرِيَّ مِمَّا
تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَهُي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

ومن هنا نرى كيف جعل الإسلام مرتبة المؤمن الذي يرث الإيمان مرتبة
دنيا .. ومرتبة المؤمن بعد البحث والشك مرتبة لا تُعْلَى في مراتب اليقين .. ولم
يكن عجيبي أن تنهض الفلسفة الإسلامية الكبرى لا تخشى ولا تهاب .. وإن سطا
بعض السلاطين والملوك على حقوق المفكرين والفكر في بعض الأحيان ليهوى في
نفوسهم لا استجابة لما يدعو إليه الدين .

أما الذي حدث بعد أن دخلت المسيحية في اليونان فشيء آخر .. فقدت
العقول حريتها ؛ لأن المسيحية تطيع الناس بطابع الخضوع والرضوخ وتدمغ الفرد
بدمغة القداسة .

فما تحرك في اليونان فيلسوف واحد منذ دخلتها المسيحية وإن لم يبعد عن
الأذهان محاكم التفتيش وقرارات الحرمان وعمليات القتل والحرق للأحرار في القارة
الأوربية كلها على مدى القرون ..

وكانت القرارات دائماً تصدر مدموغة باسم البابوات حراس الدين ..

كان الدين المسيحي دين محبة واستسلام ..

أما الدين الإسلامي فكان ولا يزال دين حق .. يبحث عن الحق ، ويسعى
إليه ، ويدعو الناس إلى الدفاع عنه .. دين جاد لا يدير الخد لأحد ، ولا يصعر
الخد لأحد .. دين جاد صريح لا يدعو الناس إلى الإيمان المستسلم بل إلى الإيمان
الجاد الذي يسبقه الشك ، وهو يرفع شأن العلم بطريقة لا تخلو من التحريض
والتحقير لكل جهالة ..

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩

قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^ع ﴾ ^(١)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم بابا من العلم يُعَلِّمَ الناسَ أُعْطِيَ ثواب سبعين صديقا » .

رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود ولا يعلم غير المسلمين ما مقام الصديقين عند الله .. إنهم بمنزلة الشهداء الذين يموتون في سبيل المبدأ والعقيدة والإصلاح ..

ويكفي في هذا الباب أن نعلم بأن الفلسفة الإسلامية التي ظهرت في القرن السابع الميلادي سبقت الفلسفة المسيحية التي لم تظهر إلا في القرن التاسع الميلادي ومابعده .. مع أن الإسلام ظهر بعد ظهور المسيح بأكثر من ستة قرون ..

ومنذ الوقت الذي أغلقت فيه المدارس الفلسفية في اليونان وكانت نهاية الفلسفة اليونانية حوالي ٥٥٩ م أقبل علماء المسلمين على الدراسات الفلسفية إقبالا منقطع النظير ، وكانت المدارس الفكرية في الإسلام تزحف زحفا غير مبطئ ، ولا متمهل .. وقد ظهرت مقدمات هذه المدارس مع ظهور الإسلام ، وفي القرن الأول الهجري .. فالخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، ومدارس الاعتزال ، وغير أولئك - كانوا يناقشون كل صغير وكبير من تراث الإسلام ، وتراث اليونان ، وتراث الفكر بوجه عام ..

على أننا لسنا في مجال المقارنات ، أو أن نفاضل بين فلسفة وفلسفة ، فالتراث الفكري ثروة إنسانية مشتركة ، ولبنات في البناء تضاف جيلا بعد جيل . لتنتهي بالإنسان إلى حاضر جاد حريص على البحث مؤمن بالحرية ، متطلع إلى أمام ..

(١) سورة الزمر آية ٩

وبعد ، فلعننا لم نخرج عن موضوعنا ونحن نقدم لكتاب عن « حقيقة الفلسفات الإسلامية » .

ولهذا الكتاب قصة يصح لنا أن نسردها ، فتكون خير مقدمة له ولؤلفه .

ذلك أنه راودتني فكرة إنشاء أول مكتبة أهلية عامة ؛ يؤمها من يريد ليطالع في مقتنياتها مايشاء لقاء مبلغ زهيد في الشهر أو في السنة .

ووكلت هذا المشروع لشقيق لي ؛ لعله أن يكون مصدر رزق له ، إلى جوار خدمته للثقافة والعلم .

ومن أسف أن هذه التجربة الطيبة تخلفت لأسباب عديدة . وتوقف المشروع .. كما توقف شقيقي عن مواصلة الطريق منذ أكثر من عام .

وكان يتردد عليّ في هذه الفترة بعض من شبابنا النابه ، فيهم الشعراء والمتأدبون ، وبعضهم صاحب قلم ، وقليل منهم صاحب فكرة .. ومن هذا القليل مؤلف هذا الكتاب ، الأستاذ جلال العشري ، وهو زميل متخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب .. نشأ نشأة قريبة من نشأة الفلاسفة ، حياته كلها تبذل وقراءة وبحث ، وروحه روح قلقة حائرة ، شاكّة متحررة .. ونفسه نفس شاب متحفز إلى كل ما فيه الخير للثقافة وللحرية .

كان يطيل الصمت ، فإذا تكلم كان كلامه عن روية وعمق .

وعرض عليّ أمر هذا الكتاب في أواخر عام ١٩٥٧ فتصفحته ووعدته بالعمل على نشره .. وهأنذا أقدمه للناس ، وأهديه إلى العالم الإسلامي وفاء بهذا الوعد ..

لم يكن في مُكنة المؤلف أن يقول كل شيء عن الفلسفات الإسلامية بطبيعة الحال ، ولكن كان في مكنته أن يعرض رأيه ، وأن يعرض موضوعه عرضاً قابلاً للنماء ، عرضاً مفتوحاً وليس مغلقاً .. وفيه توجيهات قيمة جديدة بأن تُهدى إلى الناس لتضاف إلى تراث الفكر .

وهو يستهدف النهوض بالفكرة الفلسفية عند المسلمين في أصولها الأولى .

وله في طريقة عرضه لهذا الموضوع خصائص أسلوبية لا تخلو من المتعة والجمال .

والفلسفة الإسلامية قد لا تمثل الإسلام ، ولكنها جزء من تراثه الثقافي .
والإسلامية اليوم تسود $\frac{1}{7}$ سكان العالم ، فما من سبعة من الناس يجتمعون في صعيد إلا وواحد منهم مسلم ، أى أن تعداد المسلمين في العالم يقارب أربعمئة مليون نسمة .

هذه الإسلامية التي خلدت على الزمن ، وتحطمت على صخرتها كل القوى المعادية تحتاج اليوم إلى تجديد .. وهى في حاجتها إلى التجديد تتطلب دعامة من الرجال الأشداء الذين صقلتهم التجارب ، وصقلهم العلم ، وتابعوا تطور الإنسانية والفكر .

ونحن بدراستنا للفلسفة الإسلامية نجد فهمنا لهذا الدين على ضوء من الفلسفة ، أو نجد فهمنا لهذه الفلسفة على ضوء من الدين ، فنذكر الأسس الأصلية لكلم منهما ونحدد الهدف ، ونرسم الوسائل .

ولعل أول هذه الأهداف ، وأهم هذه الوسائل هو البحث فيما ورثناه عن أسلافنا .. هل خلا من الشوائب ؟! هل بانت معالمه ؟ وهل تكشف خباياه ؟! ولعل هذا الكتاب أن يكون محاولة جادة للإجابة عن هذا السؤال ؟

عبد الهادى مسعود

كلمة في إثرها الكلمة

الإنسان ، الإنسانية . كلمتان متكاملتان تؤلفان معنى واحداً اسمه « الحياة » .
فإذا كان تاريخ حياة الإنسان هو عرض للأحداث ، وتاريخ حياة الإنسانية هو
عرض للأفكار ، فإن عرض الحياة مناط الإكبار والإصغار ، سيان في الأحداث أو
في الأفكار .

وتاريخ « الحياة » لا يكون شيئاً إن لم يكن تقديراً لما هو صواب أو خطأ ، أو لما
هو أصيل أو منتحل ، أو لما هو صحيح أو زائف ، وما هو متعال أو متهابط ، وما
هو ذروة أو حضيض .

وإذا اختلت موازين الحياة وهنت الحياة ، وإذا انقلبت تلك الموازين هانت
تلك الحياة .

وقد يفتر الحس والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ،
ولكن الذى لا يفتر قط ولا يخاله يفتر في حين من الأحيان هو خصام العقول ،
واصطلاحها ومهادنتها .

وإن أفدح مصاب تصاب به الحياة أن تأخذها سِنَّةً ، أو نوم فتختلس في تراثها
وسط هذا البلبال ، وتواصل المسير بين دفتي طريق معكوس الميزان ، مقلوب
المعيار ، على نحو مالمو أمكن أن تكون ثمة فضيلة ضد الخير ، أو رذيلة ضد الشر .

يهون إذن كل شيء ولا يهون ذلك الشيء وأنتى له أن يهون ومصير الإنسانية
رهن بمصير الإنسان ، والإنسان ليس موجوداً تاماً كاملاً بل هو تاريخ ناقص
يكتمل .

من قديم واجه الإنسان الوجود المغلق ، وقال كلمته الأخيرة في « درام » الحياة ، فمضى يخترق حَيَزَ الإغلاق وعينه مُوَكَّلَةٌ بهذه الغوامض والأسرار ، وأسفرت الرحلة عن بوتقة من القيم والمثل والمعتقدات يحياها العالم الحديث ، ويحيا بها ، ويسميا « تراثاً » .

فلوجه الله ولذمة التاريخ نتحرى أن نصون الإنسان ، والإنسانية ، نصون « الحياة » .

وهذا لون من ألوان البحث في تاريخ الفلسفة الإسلامية لم يعتده واحد من دارسيها ، أذيعه وأنا أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ثائرين وبأن فريقاً آخر سيلقونه مُتَبَرِّمين ، ولكنى على ثورة أولئك وتبرم هؤلاء أو من بهذا البحث .

وهو إذ يعالج مسألة الفلسفة الإسلامية ، يريد أن ينتهى فيها إلى الحق .. لا نافيا ، ولا مثبتاً ، ولا معلقاً إياها بين النفي لأنها قد تأثرت وبين الإثبات لأنها قد جدت .

نحن إذن بين فريقين : واحد يقبل الفلسفة الإسلامية كما قدمها له القدماء من الشرقيين أو المحدثين من المستشرقين فلا تمتد إليها يد النقد وإن امتدت فمرتعة مرتجفة لاتخطى من النقد إلا بهذا المقدار الفقير .

صالح فريق من العلماء الفلسفة الإسلامية وتعصّب لها ، وخاصمها آخر وتعصّب عليها ، فلنتوسط نحن ونكنّ محافظين ولنوازن بينهما ولنرجح رأياً على رأى ، ولنؤثر شخصاً على شخص قائلين : وُفِّقَ هذا وأُخْفِقَ ذلك ، أو لنوفّق بين هذا وذاك ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

فأنت ترى أن العقول كأنما قُدِّرَ لها أن تنقسم إلى طبقات ثلاث : أولئك متطرفون يُثَبِّتون ، وهؤلاء متطرفون ينفون ، والآخرون متحفظون يتوسطون بين أولئك وهؤلاء ، وأنت ترى أن الحقيقة كأنما قُدِّرَ لها أن تضل بين طرفين كلاهما ضلال ، والوسط أمعن مايكون في هذا الضلال .

نحن إذن بين اثنتين : إما أن نجنى على أنفسنا وعلى العلم فلا نعرف لأنفسنا حقها ، ولا نؤدى للعلم واجبه فنقبل ماقال القدماء من المؤرخين ونتبع تلك الطريقة « المقفولة » التى تعطف بنا إلى التراخي والاسترخاء وتعرض علينا بضاعتها من تفسيرات « جاهزة » وصيغ جامدة ، وتوارىخ نهائية ، وأحكام قطعية : تلك البضاعة التى يحتكرها فريق لا يستطيع أن يجدد ولا أن يُحيي . وكيف نعم : وقد أدخل نفسه فى إطار نهائى وبقي الاعتراف بأنه أقصر باعاً وأضيق ذراعاً من أن يقوم بتجديد أو أن ينهض بإحياء .

ولم يكلف نفسه عناء الشك العنيف والبحث الشاق والتفكير المضنى، أو يتكلف مناهج البحث العلمى الصحيح ، ونتائج التفكير الحر الطليق ، وقد قال القدماء بأن هناك فلسفة إسلامية وفلاسفة إسلاميين ، وأن لهذه الفلسفة موضوعاتها ومشكلاتها ، وأن لهؤلاء الفلاسفة كتبهم ونظرياتهم ، وأن محاولة التوفيق بين العقل والنقل ، أو بين الحكمة والشرعة ، أو بين النظر العقلى والوحي الدينى تعد بحق مناط الابتكار ومعقد الطرافة فى الفكر الإسلامى .

وأن قد كان « الكندى » وكان « الفارابى » وكان « ابن سينا » من فلاسفة المشرق ، وكان غيرهم من أمثال « ابن باجه » و« ابن طفيل » و« ابن رشد » من فلاسفه المغرب .

قال القدماء عن الكندى كابن النديم مثلاً : إنه « فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة »^(١) وقال صاعد : إنه اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفاً^(٢) وقال البيهقى : إنه « جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات »^(٣) وقال القفطى : « إنه فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها »^(٤).

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٥

(٢) صاعد : طبقات الأمم ص ٨١

(٣) البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام - تمة صوان الحكمة ص ٢٥

(٤) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٠

قالوا لهم هذا عن الكندي فآمنوا ، وقالوا مثله عن الفارابي فآمنوا ، قال « صاعد » إنه « فيلسوف المسلمين بالحقيقة » ^(١) وقال « البيهقي » إن قد كان أبو على تلميذاً لتصانيفه ^(٢) وقال القفطي إنه فيلسوف المسلمين غير مدافع ^(٣) وقال ابن خلكان : إنه « أكبر فلاسفة المسلمين » ^(٤) وقال حاجي خليفة : إن له كتاباً سمي « بالتعليم الثاني ، فلذلك لقب بالمعلم الثاني » ^(٥).

وقالوا لهم : إن ابن سنيا هو صاحب « الشفاء » و « النجاة » فآمنوا ، وإن ابن رشد هو صاحب « فصل المقال » و « مناهج الأدلة » فآمنوا .

وحفظوهم من الصيغ ما يرددون به هجمات الأعدى فحفظوا .

ثم تلوا عليهم من الأدعية والأحجية ما يحفظ الإسلام وينصر المسلمين ، ورضوا بهذه الحال ودعوا إلى الله بالخاتمة وحسن المآل .

وهكذا يخيّل إلى الباحث أنه قد وقف على الفلسفة وأحاط بتاريخها ، وإلى القارئ ، أنه قد درس الفلسفة وعرف تاريخها ، ويقنع المؤلف بأنه عالم ، ويقنع القارئ بأنه مطلع ، ويخبو تراث الإسلام شيئاً فشيئاً إلى أن يقف بعيداً عن ورثته ، غريباً في دياره .

وتساءلت : هل هؤلاء بذلك يخدمون العلم بعامة والإسلامية بخاصة ؟ ولو أني تمهل لما تساءلت ؛ إذ الجواب كلا ، إن هؤلاء لم يغيروا في الفلسفة شيئاً ، وما كان لهم أن يغيروا فيها شيئاً ، وقد عملوا على إراحة عقولهم ونفوسهم وإرضاء عواطفهم ونزعاتهم ، فانعطفوا على ماقال قدماء الإسلاميين وركنوا إليه وماوافق مذهبيهم هذا قبلوه وماخالفه رفضوه وانصرفوا عنه .

وهكذا أغلقوا على أنفسهم في الفلسفة باب الاجتهاد ، كما أغلقه الفقهاء في

(١) صاعد : طبقات الأئم ص ٦١

(٢) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام - تنمة صوان الحكمة ص ٨٢

(٣) القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٢

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ١٠٠ ج ٢

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون ص ٩٨ ج ٣

الفقه ، والمتكلمون في الكلام ، والصوفية في التصوف ، وهذا النحو من الدراسات
نقص وعيب :

نقص ؛ لأنه قاصر فيه عقم ، ولأنه جذب فيه قفر . وعيب ؛ لأن فيه خيانة
وفيه خداعا ، وهو نقص وعيب معاً ؛ لأنه سبب في تدهور حياتنا الفكرية
وانصرافنا عن المباحث الإسلامية ، ووقوفنا عن متابعة السير ..

وتساءلت : أيتها الحضارة إلى أين ؟ إلى القبر في هذه الأبهة وفي هذا المحيا
الوضيء ، وفيك بذور العبقرية ولازالت فيك من الأصالة بقايا ؟

أما الفريق الآخر فهو هذا الذي لا يقبل شيئاً مما قيل في الفلسفة وتاريخها إن
كان من القدماء الشرقيين أو من المحدثين المستشرقين إلا بعد تحرر وتشكك وتفكر
وتشوف إن لم ينتهيا إلى اليقين فلن يجانباه ، وإن لم يبلغا الحق فلن يحيدا عنه .
هو يأبى أن يجنى على نفسه وعلى العلم ، ويؤثر أن يعرف لنفسه حقها ويؤدي
للعلم واجبه ، فيشك ويحتج ويتمرد ويثور :

يشك في هذه الأحكام « الجاهزة » التي تقدم له .
ويحتج على هذه الصيغ « الجامدة » التي تفرض عليه .
ويتمرد على هذا « الكسل العقلي » الذي يعيش فيه .

ويثور متجهاً صوب كل ما يفيض حرية وحيوية ومرونة وخصوبة فيظل أميناً
على الحقيقة مخلصاً للواقع .

هو يشيد معارفه على أساس من الذهن الواعي والفهم الراشد المستنير ، وعنده
أن عقلاً يتحرك وينبض بشيء من الحياة خير من عقل لاهرك فيه ولا حياة .
هو لا يعرف شيئاً اسمه « فلاسفة الإسلام » ولكنه يعرف كتباً ورسائل ، ويريد
أن يتبين هل هي حقاً في الفلسفة ؟ وهل هي حقاً تمثل الإسلام ؟

وهو لا يعرف شيئاً اسمه « فلسفة إسلامية » ولكنه يعرف أن القدماء من
المؤرخين الإسلاميين قالوا ذلك .. ويريد أن يتبين : أصواباً قالوا أم ضلالاً ؟

« فإن تاريخ الفلسفة بالمعنى الحديث لم يوجد في الإسلام ، والذي عرفه المسلمون من دراسة تاريخ الفلسفة هو كتب الطبقات والتراجم »^(١) « هذا كلام الإسلاميين في الفلسفة الإسلامية ، مع قصوره عن تكوين منهج تاريخي ، هو في غالب الأمر يعنى ببيان نسبة هذه الفلسفة إلى العلوم الشرعية وحكم الشرع فيها »^(٢).

إذن فهذا الفريق في علاقته بالفلسفة الإسلامية إنما يتعامل بأدوات غير تلك . . . يستعملها الآخرون ، فلا ينفذ إليها إلا بعد أن يسقط « الألفة » و « المودة » ويحل محلها « الريبة » و « التساؤل » ويتساءل : « أهنالك فلسفة إسلامية ؟ فإن كان هناك فلسفة إسلامية فما هي ؟ أهى وحدة كاملة أم أجزاء متكاملة ؟ وما السبيل إلى معرفتها ؟ وما هو منهجها ؟ وما هو طابعها ؟ وما مناطها وما مقوماتها ؟ وما صفاتها وما سماتها ؟ وما هو مكانها بين سائر الفلسفات ؟ وبم تمتاز دون سائر الفلسفات ؟ » .

ومنهجنا هذا في دراسة الفلسفة الإسلامية فيه ثورة ، ثورة لا تقل في تأثيرها وآثارها عن أى ثورة تُلغى قديماً كان الناس يعتزون به ، وتُزعزع يقيناً اعتاد الناس أن يُسلموا به ، وتُغيّر تاريخاً حفظوه وألفوه واستحبوا ذكره .

ذلك أننى تحررت في دراسة الفلسفة الإسلامية ، فشككت في أصالتها وطرافتها فوضعتها « بين قوسين » وجعلت أبحث وأنزوى واستقرئ وأستنبط وأقارن وأوازن حتى انتهيت إلى حذف القوسين بإصدار حكم إلا يكن صواباً فهو إلى الصواب أدنى ، هو أن الفلسفة الإسلامية كما هى ممثلة في الفلاسفة : فيلسوف العرب ، والمعلم الثانى ، والشيخ الرئيس ، والشارح الأكبر وأصحابهم وتلاميذهم ومريديهم ليست من الإسلامية فى شيء ، فهى يونانية لاتمثل حياة المسلمين وفكرهم وروحهم ومزاجهم كما تمثل حياة اليونانيين ، وفلاسفتها لاتلتمس حقيقتهم فى كتبهم بقدر ماتلتمس فى الإجابة عن هذا السؤال : إلى أى حد كانوا

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥

(٢) المصدر نفسه : ص ٩٨ ،

مخلصين للواقع العربى الإسلامى ؟ وإلى أى حد كانوا أمناء على العقلية العربية أوفياء للشريعة الإسلامية ؟

فاذا رأينا أنهم ماكانوا مخلصين ولا أمناء ولا أوفياء أدركنا أنه لاينبغى الاعتماد عليهم فى استخراج الصورة الإبداعية للميراث الإسلامى . وعليه فهم خطيئات الإسلامية وأخطاؤها ، وكل إقحام لفلسفتهم فى الإطار الحضارى للميراث الإسلامى ينطوى على خيانة لروح الاسلام ، كما أن فيه تجنياً على كنه العقل العربى . وكيف لا وهم أصحاب التفكير المجانى ؟

وكيف ولا وقد جاءت الفلسفة الإسلامية نباتاً يونانياً خالصاً بذوراً وساقاً وفروعاً وأوراقاً ؟

وغاية مايقال فى هذه الفلسفة أنها مجموعة من « التركيبات » و« التشكيلات » فيها « خواطر » و« عواير » ولكنها لاتمت بسبب إلى المذاهب الفلسفية الكبرى ، مؤتلفة الأجزاء ، متسقة الأبعاد ، فيها مناهج ونتائج .

إن « العينية » لأقل من « فيدون » .

و« الفلسفة الأولى إلى المعتصم بالله » لدون « الأخلاق إلى نيقوماخوس » .

و« المدينة الفاضلة » لأصغر من « الجمهورية » .

و« الإشارات والتنبيهات » لأهون من « الكون والفساد » .

على أنى أحب أن أطمئن هؤلاء الذين يعطفون على الفلسفة الإسلامية ويجدون شيئاً من النشوة والارتياح فى أن يعتقدوا بأن هناك فلسفة إسلامية تتوج تعاليم الإسلام وأشغال المسلمين ، فلن يقضى هذا البحث على ذلك الحلم الوردى الجميل ، ويمحو وجود عبقرية إسلامية ، بيد أنى أتمس مرآة هذه العبقرية فى مناج أخرى : أتمسها فى حمية الدين ورفاهية العقل كما هما عند مفكرين من الإسلام وقفوا على حضرات التراث اليونانى وقفة الجازم الرافض لها ولكل ملحقاتها ، فظهروا فى ثوب متكامل فيه استقرار القلب وتوقد العقل ، فيه حصافة الفكر وقوة الإيمان ، فما بحثوا إلا مايألفونه ويدور فى فلكهم ، ولم يتكلفوا مالا علاقة لهم به ومالا يجدى على ظروفهم شيئاً .

وأنا واجد هذه العبقرية أصيلة خالصة مخلصة عن تلك التي اعتدناها في مباحث الفلسفة وكتابات الفلاسفة : ذلك أنى لا أنكر الأصالة والطرافة والابتداع والابتكار في الحضارة الإسلامية ، وإنما أنكر أن تمثلها هذه الفلسفة وهؤلاء الفلاسفة .

وأنا إذ أستبعد الفلسفة الإسلامية أبقى على وحدة التراث ، وفيه الكفاية ، ولم لا أفعل وقد جاءت فلسفة يونانية... يونانية إلى أقصى حد ؟ والحي وحده هو الذى يقول « لا » وحى كميته هذا الذى لا يقول إلا « نعم » .

جلال العشرى

مقدمة

بحثنا .. وما المنهج ؟

بحثنا هذا يقع في ثلاث مقالات :

الأولى : استيعادية ، عنيها فيها بالوقوف على البواعث الحقيقية لقيام حركة الاستشراق باعتبارها فاتحة الطريق إلى الثقافة الإسلامية وباعتبار روادها معالمة إلى الحياة العقلية والروحية في الإسلام ، فرأينا إبرازاً لحقيقة هذه الحركة في صورة متكاملة أن نقرنها بحركة أخرى لازمتها وسارت معها جنباً إلى جنب ، بل كثيراً ماتقدمتها الأولى ومهدت لها ، وتلك الأخيرة هي حركة الاستعمار.

فلا بد من التوحيد بين الحركتين ، والنظر إليهما كوحدة مترابطة ، وربط هذا كله بواقع المجتمع الأوربي في القرن التاسع عشر . ومن خلال هذه النظرة تنكشف الحقائق التي تستر وراء الظواهر ، وتتجمع كلها لتصب في محيط واحد هو : استغلال الشرق .

فحاصل حركة الاستشراق بعضه أنتج تجنيا موعلا ، وبعضه أثمر تعصباً ليس له مدى .

فهم يزعمون أن الحضارة العربية الإسلامية انعدمت فيها ملكة الخلق والإبداع ، وإن قدرت على نقل مبتكرات الأمم الأخرى . فهي حضارة انمازت بالنقل ولا ابتكار ، وبالتقليد ولا تجديد ، وبالاتباع ولا ابتداء .

كما يدعون أن الأمم الشرقية إذ تطلب العلم تجعله هادفاً لا هدفاً في ذاته ، وتحصله بقصد المنفعة لا لكشف الحقيقة من حيث هي ؛ فليس العلم عندهم للعلم ولكن للحياة . ولا كذلك الحال عند اليونان . ويرجعون هذا الزعم وذلك الادعاء إلى تفاوت

أصيل في طبيعة الجنسيتين : الآري والسامي ، فإذا رأينا أن بدعة القصور العنصرية هذه لا العلم يلجئنا إليها ولا شواهد التاريخ ، ولكن نزواتهم بأنهم أرق الأجناس البشرية وأحقها بالسيادة ، ونزعاتهم في استعمار الشرق وتصريف شئونهم ، فسرنا بذلك حركة الاستشراق وربطناها بحركة الاستعمار ونعتناهما « بالغزو المزدوج » .

وعليه آثرنا استبعاد أية محاولة من شأنها إنكار الفلسفة الإسلامية « الغض من قيمة الميراث الإسلامي ، تقوم على دعائم عنصرية أو حتى تستند إليآراء المستشرقين ، على أنى لا أنكر ما لدراساتهم وكفائاتهم من فضل في تبصيرنا بهذا الميراث ، ووعينا بمكانه في تاريخ الفكر الإنساني .

والمقالة الثانية انتقادية قصدنا بها معالجة قضية الثقافة الإسلامية بمبضع النقد بعد تعرفنا على سمات العقلية العربية الجاهلية في براءتها الأولى « وماذا كان موقفها إزاء متباين التعبدات والاعتقادات والديانات وسائر المذاهب والآراء والأفكار من صابئة إلى مجوس ، ومن يهودية إلى نصرانية ومن فارسية إلى هندية ، ثم إلى إغريقية تسربت جميعاً إلى جزيرة العرب كما جاءت بها قوافل الأعراب مع رحلة الشتاء والصيف .

وقد كانت الجزيرة تصطرع بكل هذه الممكنات الدينية والفكرية فضلاً عن مشكلاتها الخاصة ، فأدى هذا الصراع بالعقلية العربية إلى أزمت عيفة حادة أحال مادتها إلى عجيبة لينة ، فصهر معدنها دون أن يشكله ، وأذاب خامتها من غير أن يجمدها على نمط ما ، وما هو إلا أن يجيء الإسلام حتى تنصب في قالبه مادتها اللينة ومعدنها المنصهر وخاماتها المذابة وتخرج العقلية العربية الإسلامية تلك التي تمحضت عنها الإسلاميات المتهمة في براءتها ، والتي لا يتطرق إليها الاتهام .. وخلصنا إلى إدانة معطيات فلسفة الفلاسفة ، والإبقاء على تفقه المتفقيين ، وتكلم المتكلمين وتصوف المتصوفين .

أما إدانة الفلسفة الإسلامية فعلى أساس تسلطها على مرافق الثقافة اليونانية بعد هروبها من حظيرة الإسلامية وخروجها على أنماط الإسلام ، واتضاح تهافتها عند مقارنتها بالفلسفات المتكاملة ذوات المناهج متاقدام منها وماتوسط وماتعاصر . كال يونانية والإنجليزية والإسلامية ممثلة في الفقه والتكلم والتصوف .

وأما الإبقاء على الفقه والكلام والتصوف فباعتبار مباحثها معبرة عن « القطب الموجب » لأنماط الحياة الإسلامية العقلية والروحية .

وبعد : فحسب الفلسفة الإسلامية أنه لم تنطفئ في يدها شعلة الحضارة البشرية فأحسنست استقبال تراث اليونان مدة إقامتها في المشرق ، كما لم تتخل عنه ، وصحبته معها في رحلتها إلى المغرب ، فسلمت الشعلة إلى من تلاها وقد ازدادت توهجاً وتوقداً .

والمقالة الثالثة والأخيرة ارتقائية ، خلصنا فيها إلى وضع الفكر الإسلامي وضعه الصحيح تدعيماً لأركانه وتحديداً لجهاته الأصلية ابتداء من ينابيعه الأولى ، وامتداداً به إلى العصر المعاصر .

ونقطة الارتكاز هي أن نلتفت إلى ميراثنا من فقه وفقهاء ، وكلام ومتكلمين ، وتصوف وصوفية ، فندرسه بحصافة العقل وتوقد القلب وحمية الدين ، ناظرين إليه كوحدة كاملة أو كأجزاء متكاملة ، لانتشته تلك الفلسفة التي هي في حقيقة الواقع تمزيق في وحدة التفكير وانعطاف في مجرى تياره ، فضلاً عن كونها « فلسفة مجانية » .

أما نقطة الانطلاق فقد كانت عبّر علم الكلام ومايقوم عليه من قرآن ، وانتخبنا مشكلتين من أكبر المشكلات التي شغلت العالم الإسلامي وتجلت فيهما عبقرية المفكر المسلم هما : التوحيد والعدل وأما هذا الطابع المميز للحضارة الإسلامية والذي وقفنا عليه فهو - في اعتقادي - تلك « التأملية التجريبية » التي لا تُحلّق بالفرد في العالم المعقول أو عالم الماهيات كما لا تفرقه في العالم المحسوس أو عالم الموجودات .. وإنما تعمل الفكر التجريبي العلمي في حقل الواقع ، كما تعمل فيه الفكر التأملی النظري .

فكأنما جعلت من التأملية والتجريبية اتجاهين متآزرين في تيار فكري واحد وكيف لا والدين الإسلامي دين عبادة ونظر ومعاملات معاً ؟

ومن ثم فليست الحضارة العربية الإسلامية حضارة « سحرية » كما سماها « شبنجلر » مقابلاً بينها وبين الحضارة الغربية الأوربية والتي سماها حضارة « فاوستية » وإنما هي حضارة « تأملية تجريبية » في نفس الآن .

وبعد: فلما كانت خطة هذا البحث ليست عرضاً لمشكلات الفلسفة وليست سرداً لشتى حلولها ولا تعداداً لكتبتها ورسائلها ولا جدولاً بأعمال الفلاسفة - وهذا في اعتقادي أقرب إلى مهنة المكتبي منه إلى مهمة الكاتب - فإن دراستنا لشخصية ما أو نظرية ما لن تكون لذاتها ومن حيث هي ، بل باعتبارها طرائق إلى غايات أسمى كما أن الكتب والأسفار لن يهمني منها الوقوف على السطور والكلمات بقدر ماتهمني في استخلاص الملامح والسمات .

فأنا لا أسأل الفلاسفة : ماذا قالوا ؟ ولكن : لماذا قالوا ؟ وكيف قالوا ؟ فكأن دراستنا لهذا الجانب هي دراسة من « الخارج » أكثر منها إغالا في « الداخل » وحكمنا على قضية الفلاسفة فيما يتعلق بهذه الناحية هو بمثابة حكم على « الملف » ولا حكم على « الحشيات » .

والواقع أن سيرة الفلسفة الإسلامية : تواريخ كتبها ، وتراجم رجالها لا تفتقر إلى المزيد من الحواشي والتفاصيل ، وإنما الذي تفتقر إليه هو المدخل القويم أو المنهج السليم التي تؤتي من قبله أحكام عادلة .

وإنه لمن نكد الطالع أن نتخدع أفهامنا بأن الفلسفة الإسلامية تلك المتمتعة بمجانية التفكير هي كل عينات النظر الفلسفي في الإسلام وتلك هي الفكرة التي غلبت على هذه الكلمة في مستعمل الكلام ودارجه ، وارتبطت في الذهن بمدرسة الفلاسفة وحدها .

ولهذا آثرنا تقديم عينات أخرى للتفكير الفلسفي المسلم ، مما حدا بنا إلى تسمية مؤلفنا باسم « حقيقة الفلسفات الإسلامية » بدلا من تسميته الأولى وهي « أصالة الفكر الإسلامي تلتمس عند غير الفلاسفة » ومادامت لفظة « فلسفة » ليست وقفاً على مدرسة الفلاسفة ولا غير .

وآخرأ فهذا هو منهجنا الذى نقول فيه ماقاله « يكون » متحدثأ عن « أداته الجديدة » :

« ونحن على يقين من طريقنا لا من موقفنا »
« وما قاله « ديكارت » متحدثأ عن « مقاله فى المنهج » :
« وإن الإنسان إذا كف عن أن يتقبل الباطل على أنه حق ، لايجد قصيأ
لايستطيع الوصول إليه ، ولاخفيأ لايمكنه الوقوف عليه » .
و « يكون » و « ديكارت » هما باعثا عصر النهضة من قبر العصور الوسطى
بعد أن اختفت القرون فى غياهب الظلمات .

المؤلف